الرمز اللوني في شعر ابن حمديس الصقلي

د. بوعلاوي محمد
جامعة المسيلة

الملخص:

جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ: الرمز اللوني في شعر ابن حمديس الصقلي ، متقصية اللون ورمزيته في أشعاره، وقد اعتمدت على عدد من المصادر والمراجع، موظفا المنهج الإحصائي الوصفي في دراستي. فقد استعمل الشاعر الألوان استعمالا موفقا، وتطرق البحث إلى الدلالات النفسية والاجتماعية العديدة للألوان، وارتباطاتها في الشعر العربي القديم.

وعرضت الخاتمة لأبرز النتائج لقيم اللون، وأهميته، وتأثيره البالغ على النفس الإنسانية، ومدعاة للتدبر في دلالته التي أبدعها الخالق في مخلوقاته.

Abstract :

This study is based on the color code in the poetry of Ibn Hamdis Al-Saqli, the color and its symbol in its poetry. It was based on a number of sources and references, the descriptive statistical method in my studies. The poet used colors in a good way, and the research touched on the many psychological and social connotations of colors and their associations in ancient Arabic poetry.

And presented the conclusion of the most prominent results of the values of color, and importance, and its impact on the human soul, and a reason to reflect on the significance created by the Creator in his creatures.

الشعر عالَم من الجمال يحمل مواقف الإنسان الفلسفية والانفعالية، بكل واقعيتها وخيالها، ببساطتها وتعقيدها، تلك المواقف المتداخلة المليئة بالحيوية وإيقاع الحياة المتنوع، تنفجر وتتدفق صورا غنية بالتشابيه الدقيقة والغريبة أحيانا، ويصقلها توافق تام بين نسيج الكلمات والتعبيرات الموحية، والبحث في علاقة الألوان بالناحية الشعورية هو بحث يسبر أغوار النفس الإنسانية، من أجل ربط الظاهرة الانفعالية بالتشكيل اللوني، ومع تطور العلوم وتداخلها، أصبح اللون ذا بعد نفسي أكثر، من حيث لم يعد معبّرا عن جمالية ظاهرة فقط، بل بدا معناه يتسلل إلى خفايا النفس الإنسانية، ويُظهر مكنوناتها الداخلية، ولذلك ارتكزت عليه الصور الشعرية.

يتوسل الشاعر بالألوان للتعبير عن تجربته الشعرية، فيُعيد تشكيل اللغة، لتقول الألوان ما لم تقله الكلمات، فيعمل اللون على تكثيف الحالة الدلالية والايحائية للنص الشعري، لذلك يطمح الشاعر -على العموم – باستخدام الألوان إلى الارتقاء إلى مقامات عليا، ويعدّ شعر ابن حمديس حقلا خصبا لبلورة تأثيرات الألوان النفسية، ومفعولها الفني في بناء قصائده، بما له من وُسع تعبيري لا توفّره اللغة المعيارية، لأنها قاصرة عن ترجمة المشاعر والانفعالات النفسية، واستكناه عناصر الطبيعة في تناسق ألوانها اللامتناهي.

قال يصف قصرا بناه المنصور بن علناس ببجاية:

قصــرٌ لــو أنّــك قــد كحلــتَ بنــوره أعمـــى لعـــادَ إلـــى المقـــام بصـــيرا[1]

اعتمد الشاعر في هذا التشكيل الشعري على مادة ذات صلة بالحواس، ومن هنا خاطب الإحساس والمخيّلة بفعل المحاكاة المعنوية المجرّدة بالمادية المحسوسة، واستطاع توظيف اللون توظيفا أفصح عن علاقة خاصة تربطه بهذا اللون ارتباطا نفسيا اجتماعيا، ذلك لأن «شعرية اللون تنبثق اشكاليتها من منظومة علاقات يحتلّ

الشاعر مركزها باتجاه التراث والطبيعة والعصر واللغة والإيديولوجيا، ويَضحَى صعبا تغييب مفاتيح بعينها لاستجلاء حدود وفعاليات المحاور الدلالية لجماليات اللون في الخطاب الشعري خاصة، مع تراكم التجارب الشعرية »[2]، وتنوع توظيفها.

ويأتي اللون الأبيض في مقدمة الألوان، وهو من الألوان الباردة، التي تثير الشعور بالهدوء، وقد اهتم العرب قديما بتمييز الأبيض بألفاظ خاصة، تحدد درجاته وصفاته، فقد رتب الثعالبي درجات الأبيض على النحو التالي: «أبيض، ثم يقق، ثم لهق، ثم واضح، ثم ناصع، ثم هجان، وخالص»[3] ويكون غالبا مقترنا بالأسود، فهما بداية لونان متضادان، مرتبطان بالليل والنهار، والظلمة والنور، لذلك يُتداولان في جميع اللغات والحضارات. وتبدو المبالغة جلية في هذا البيت الشعري، لأن منبتها اللاشعور الذي حمل الشاعر على البوح، فالبياض الذي أضاء القصر لو كحل بنوره أعمى لعاد بصيرا، فالربط بين البياض والعمى أعطى دلالات إيحائية عميقة.

وقال في ذات القصيدة:

يَستخلفُ الإصباحُ منه إذا انقضى صبحا على غسق الظلام منيرا[4]

آثر الشاعر في هذه الصورة اللون الأبيض، «لأنه يمثل الفطرة الأولى للأشياء على وجه الأرض، فحقيقته تدل على معاني سامية أعلاها الطهر والصفاء والبراءة والحرية والسلام والاستقرار»[5]، والصورة في هذه اللوحة تشي بأنّ الفرجَ أعقبَ الهمومَ فاستبانت الرؤيا، كما جلّى الظلامَ نور الإصباح. والإحساس العميق بهذه القيمة الضوئية استحضره الشاعر عندما أراد تجسيد أفكاره، وهو بهذا يعبّر عن الحياة بفضائها الرحب، وكان متماهيا مع الكون، ومن هنا رأى في الضوء مَعينا متعدد الأشكال والألوان يغمسُ فيه ريشته، فيشكل لوحاته وينسّقها وفق إحساسه الداخلي العميق.

إلى أن يقول:

فكأنّما غشّى النّضار جُسُومَها وأذاب في أفواهها البلّورا[6]

ارتبطت دلالة اللون الذهبي بأثمن معدن تتزين به المرأة وتضمّه إلى حليها الغالية التي تحرص على عرضها في مختلف المناسبات السعيدة، والمشهد في هذا البيت يحيل إلى تماثيل الأسود الرابضة حول البركة، والماء يتطاير من أفواهها كالبلّور. وهي مدلولات توحي بالتأمل والفكر العميق، تسافر الروح خلالها في عالم الوجد.

إلى قوله واصفا الأسود:

وتخالُها، والشّمسُ تجلو لونَها نارا وألسُنَها اللّواحسَ نورا[7]

الشمس غداة سطوعها تجلّي لون الأسود الأحمر الذي يشبه النار، أما ألسنتها فتحاكي ألسنة النار التي يكون لونها -غالبا- نورانيا، وجاءت حركة التضاد اللوني في هذا البيت الشعري لتمنح النص بعدا دلاليا، وتعمق الشعور بالحيرة والأسى، والقصيدة تومئ إلى مفارقة يعيشها ابن حمديس، من هم وتوتر وحزن شكلت الألوان دلالتها.

ثم يقول:

شـــــجريةٍ ذهبيـــــةٍ نزعـــــت إلـــــى ســـــحرٍ يـــؤثّر فـــي النّهـــى تـــأثيرا[8]

ملأ اللون المجال الإدراكي للشاعر وأصبح يمثل مركزا يُشعّ منه الإيحاء داخل النص، وبتزاوج الماضي مع المضارع أفضت الدلالة إلى الاستمرارية والتجدد والتأثير الذي لازم الشاعر.

إلى قوله:

مـــن كـــلّ واقعـــةٍ تـــرى منقارَهـــا مـــــاءً كسلســـــال اللّجـــــين نَميـــــرا[9]

تكشف هذه الصورة التي اتّكأت على اللون الأبيض عن مدى اسهام هذا اللون في تشكيل واقعية الرؤية الجمالية عند ابن حمديس، وقد تسرب إلى صوره من مدركاته الحسية المضيئة في صقيلة ثم الأندلس فبجاية.

حتى قوله:

وكأنّمـــا فـــي كـــل غصـــنٍ فضّـــةٌ لانـــت فأُرســـلَ خيطهـــا مجـــرورا[10]

استدعى الشاعر في هذه الصورة البيانية اللون الأبيض الناصع، الذي استمده من اللجين، للدلالة على فكرة مركزية في القصيدة، هي الوصف وذكر محاسن هذا القصر، وجاء التشكيل الجمالي دالا على التوهج، ومعبّرا في الوقت ذاته عن ذوق دقيق وأنيق، لأن رؤية الشاعر للون والتعبير عنه قد تكون نفسية أكثر منها بصرية، فلم يعد اللون ذلك المدرك الحسي الذي تحسه العين وتدركه وتستمتع به، بل غدا رؤية نفسية شعورية داخلية، فالشاعر يبني من خلال ألوانه تفاصيل خواطره العاطفية.

ثم يقول:

ضَـــحكت محاســـنُه إليـــك كأنّمـــا جُعلـــت لهـــا زُهـــرُ النّجـــومِ ثغـــورا[11]

الجمع بين الضحك وزهر النجوم في مقام الوصف يحمل معنى السعادة والإشراق، والنجوم في وجدان العربي تبدد ظلمة الليل الموحش، فيهتدي بها الساري، أما أفولها فيحيل إلى الفاجعة المؤلمة السريعة.

ثم يقول:

وكأنّمـــا للشـــمسِ فيـــه لِيقَـــةٌ مَشَـــقُوا بهـــا التّزويـــقَ والتّشـــجيرا[12]

يبدو اللون الأبيض أسخى الألوان إيحاء في نظر الشاعر، والصورة بصرية مضيئة، والشمس لها في الأساطير قداسة، مما يدلّ على اقتدار الشاعر على اقتناص اللون من مداه البعيد، وقد أفرط ابن حمديس في استعمال اللون الأبيض، لعلمه أنه نقطة بدء الألوان وغايتها.

وقال مادحا المنصور بن علناس، وواصفا قصرا له ببجاية:

وكأنّـــــه مـــــن درّة شـــــفّافةٍ تُعشـــي العيـــونَ بشـــدّة اللمعـــان[13]

انتقل الشاعر باللون من مرحلة النقاء والشفافية إلى مرحلة التلاعب بالمشاعر، لأن الجواهر بألوانها الباهرة ما فتئت تأخذ بالألباب والعقول، والصورة تمدنا بشحنة نفسية متدفقة، تتأرجح بين الواقع والمأمول.

إلى قوله:

وتوقّـــدت بـــالجمر مـــن نارنجهـــا فكأنمـــا خُلقـــت مـــن النيّـــران
وكـــأنهن كـــرات تبـــرٍ أحمـــرٍ جُعلـــت صـــوالجها فـــي القضـــبان
إن فـــاخر الأُتـــرجّ قـــال لـــه: ازدجـــر حتـــى تحـــوزَ طبـــائعَ الايمـــان
لـــي نفحـــةُ المحبـــوب حـــين يَشـــمّنى طيبـــا، ولـــونُ الصـــبّ حـــين يرانـــي[14]

يتضح من خلال هذه الأبيات أن الشاعر يبتهج للون الأحمر، الذي تجلى في "الجمر" و"التبر" و"الأترج"، فهو لون الدم والشهادة والعشق والثورة، واستحضار هذا اللون عند ابن حمديس له ما يبرره على مستوى الوعي واللاوعي، فالألوان تحضر في ذاكرة الشاعر ومشاهداته البصرية كمفردات تنطوي على أسرار ورموز تبتعد عن اللغة بالانحياز إلى اللون، والشاعر لم يجعل اللون الأحمر إلا رمزا للعواطف الثائرة سلبا أو إيجابا، مزاوجا بين المرئي اللوني والصوت اللامرئي المسموع، بين الحسي والمعنوي للدلالة على الجمال والعمق.

حتى قوله:

والمـــاءُ منـــه ســـبائكً فضّـــيةٌ ذابـــت علـــى درجـــاتِ شـــاذروان[15]

بدا ميل الشاعر واضحا نحو الألوان الزاهية الاحتفالية، بدلالات جديدة متداخلة مع الزمان والمكان، فالماء يشبه السبائك الفضية التي تنساب، ومن يتتبع إيقاع الألوان في التجربة الشعرية لابن حمديس، يقف على تناص الشاعر مع نفسه، وتكراره للصور اللونية وتداخلها واختلاطها بأجواء الغربة والحزن والتضحية والصفاء...

إلى قوله:

وكأنّمـــا بـــردَ المـــاءِ منهـــا مُطفـــئٌ نـــارا مُضـــرّمةً مـــن العُـــدوان[16]

برع الشاعر في توظيف الألوان وفق حقول دلالية مختلفة في سياقات تقابلية الماء/النار، بلورت معجما شعريا لونيا خاصا، ورؤية مميزة نهلت من معين الواقع وعدلت عليه، لتوظف التاريخ والأسطورة والرمز، مستعينا ببصيرة نافذة، وموهبة فذة، وثقافة عميقة، «وما دامت الحواس والقلب ومدركاتها هي الرافد الأساسي للصورة الفنية، فإن علينا أن نتوقع حضور اللون في عملية الأداء الفني ليؤدي مهمة المفردة الحسية»[17] حيثما يكون لها مدلولها التأثيري.

وقال مادحا المنصور بن علناس:

أمُـــدامٌ عـــن حبـــابٍ تبتســـم أم عقيـــقٌ فوقَـــه دُرّ نُظـــم
أعلـــى الهـــمّ بعثنـــا كأســـنا أم بـــنجم الأُفْـــق شـــيطانٌ رُجـــم
أظـــلامٌ لضـــياء طَبَـــقٌ أم علـــى الكـــافور بالمســـك خُـــتم
أنـــدى فـــي الزهـــر أم مـــاءُ الهـــوى حـــار فـــي أعـــين حـــور لـــم تـــنم
أعمـــودُ الصّـــبح فـــي الغيهـــبِ أم غـــرّةُ الأشـــقر فـــي الغـــيم الأحـــم[18]

وجد الشاعر في الألوان خير موئل يمكن الفزع إليه، وأوحى تكرار الاستفهام في الأبيات بقلق وتوتر نفسي حاد، وتجلى الزمن المتسلط واضحا في نسيجها الشعري، مقترنا باللون الأسود الذي غلف أفكارها، مع ميل

الشاعر إلى لونين رئيسيين هما: الأبيض والأسود، أصلهما الزمن ليل/نهار، ومن هنا نجد الظلام المعادل الموضوعي للحياة في لونها الأبيض، والحياة لا تسري في الإبداع الشعري إلا إذا اصطبغت مفردات الطبيعة بحالة الشاعر النفسية، والزمن تتبدل ملامحه وتختلف دلالاته تبعا لتنوع المشاعر.

إلى قوله:

وكـــأن الشّـــمسَ فـــي ناجودهـــا مـــن ســواد الغــار فـــي قُمـــصٍ ظلـــم[19]

السياق الذي ورد فيه اللون الأسود يعبر عن مدى معاناة الشاعر، وهذه الصورة اللونية تحيل إلى المجهول، لأن اللون انزاح عن دلالته المباشرة، ليكتسب إشارات أخرى من خلال غرسه في تراكيب معينة «فاللون قوة موحية جذابة تؤثر في جهازنا العصبي»[20]، بإثارة العاطفة وتهدئة النفس.

إلى أن يقول:

يثرجـــع الليـــل نهـــارا بالظّبـــا ويُعيـــد الظهـــرَ بـــالنّقع عـــتم[21]

غبار المعركة فوق الرؤوس جعل النهار ليلا، ولمعان السيوف وسط هذا الغبار أحال الليل نهارا، والبيت كله يقوم على المقابلة بين صورتين، وتوظيف الألوان جاء للإقناع والتأثير، فهي «تستخدم كي تقنع القارئ وتنال إعجابه، وتشد انتباهه، وتصدم خياله، بإبراز الشكل أكثر حدة، وأكثر طرافة، وأكثر جمالا»[22]، ويبدو أن جماليات اللون عند ابن حمديس ذات مستويات معينة، باستطاعة الدارس أن يتتبعها حتى تتاح له فرصة التأويل والتفسير.

وقال راثيا القائد أبا الحسن علي بن حمدون الصنهاجي:

بأيـــديهم نَـــوْرُ البنفســـج فـــي ظُبـــا ينـــوّر مـــن نـــارٍ لهـــا حطـــبُ الهنـــد[23]

إن جو النص الشعري لا يوحي بجمالية اللون، لأن السياق الخارجي يجلله الحزن والألم، والفعل المضارع هنا يديم حركة العذاب، ويثير صورها، فالأزهار تتوهج، والنار تتقد، وفي نهاية هذا المقطع أفضت الألوان الزاهية إلى لوعة يائسة فاجأت المتلقي.

حتى قوله:

لـــه هِمّـــة فـــي أفْقِهـــا فرقديـــةٌ كواكبُهـــا زُهـــرٌ أحـــاطَ بهـــا السّـــعد[24]

مثّل الدال اللوني المكانة البارزة من خلال لفظ "زهر" كلون مباشر تصريحي، ولفظ "السعد" بلونه الضمني، ويبدو أن الشاعر كان على وعي بما تتركه الأوصاف اللونية غير المباشرة من تأثير في النفوس.

حتى قوله:

كـــأن نُضـــارا ذائبـــا عـــمّ جســـمَها وإن رام حســـنا فـــي العيـــون لـــه الحمـــد[25]

استعار الشاعر اللون الذهبي للمرثية، واختيار اللون سواء كان بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، «يتعلق بالموقف الذي استدعى وعي الشاعر حتى يقول القصيدة، فالموقف يحدد طبيعة الاختيار والانتقاء»[26]، إن الإحساس بالفقد والحزن يسبق كل شيء في هذه القصيدة، ولكي نتمكن من رسم اللوحة النفسية المفعمة بالحزن والتشاؤم، لا بد من الاستناد إلى التكثيف اللوني.

وختاما:

1. كشف هذا البحث عن ولع ابن حمديس بالألوان واهتمامه بها، فقد شكلت مفردات اللون خطا بارزا في معجمه اللغوي.

2. تبين في نهاية البحث أن عددا من الصور اللونية وردت في شعر ابن حمديس، لها دلالات معينة، تنوعت وتعددت وفق سياقات خاصة وردت فيها.

3. اتخذ الشاعر من اللون أسلوبا للتعبير عن الصور الحسية والمعاني النفسية.

4. تبوأ الأبيض والأسود، والضياء والظلمة أكثر الألوان ورودا في بجائيات ابن حمديس.

5. تمكن اللون من الدخول في تشكيل المشاهد الوصفية، فنيا ونفسيا.

6. ظهرت في شعر ابن حمديس براعة فائقة في تشكيل لوحات شعرية تقوم خيوطها على اللون المباشر واللون الضمني، وحملها كثيرا من الدلالات والمعاني، واستعاض بها عن كلمات كثيرة وعبارات طويلة.

7. إن عالم الألوان عند الشاعر قد شكل نقاطا أساسية تنتشر في فضاء نصه الشعري، فقصائده تفيض بألوان مختلفة، وكل لون له ارتباطه الوثيق بأعماق نفس المبدع.

8. يعبر الحضور اللوني في شعره عن مزاجه المتقلب، حيث اقترنت سياقات اللون عنده بالمتعة واللذة، والألم والحيرة...

9. لمسنا أن الشاعر يجاري السابقين من الشعراء في مجال التصوير اللوني، وهذا يعكس مدى اطلاعه على التراث العربي.

الهوامش

[1] ابن حمديس الصقلي، الديوان، تصحيح وتقديم إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص545.

[2] دياب محمد حافظ، جماليات اللون في القصيدة العربية، مجلة فصول، ج5، ع3، 1985م، ص41.

[3] الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، فقه اللغة، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ط1، ص112.

[4] ابن حمديس الصقلي، الديوان، ص547.

[5] قدور عبد الله الثاني، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، دت، دط، ص143.

[6] ابن حمديس، الديوان، ص547.

[7] نفسه، 547.

[8] نفسه، 547.

[9] نفسه، ص548.

[10] نفسه، ص548

[11] نفسه، ص548.

[12] نفسه، ص458.

[13] نفسه، ص495.

[14] نفسه، ص495.

[15] نفسه، ص495.

[16] نفسه، ص496.

[17] محمود الجادر، الأداء باللون في شعر زهير بن أبي سلمى، بحث، مجلة كلية التربية، الجامعة المستنصرية، العدد2، 1990م، ص87.

[18] ابن حمديس، الديوان، ص439.

[19] نفسه، ص440.

[20] حمدان نذير، الضوء واللون في القرآن الكريم، الإعجاز الضوئي-اللوني، دار ابن كثير، دمشق، ص29.

[21] ص441.

[22] جيرو بيير، الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط2، 1994م، ص72.

[2323] ص174.

[24] ابن حمديس، الديوان، ص175.

[25] نفسه، ص175.

[26] عياد شكري، اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي، أنترناشيونال اكسبريس، القاهرة، مصر، ط1، 1982م، ص96.